

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة فاطر مكية

من قولهم ناشت إذا أبطأت وتأخرت ومنه البيت:
تعني نثيشان يكون اطاعني

أي: أخيراً.

وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْدِرُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ

﴿٥٧﴾

لَمَسُدُّ يَلَهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثَقٌ وَوَجَعٌ يُزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٥٧﴾.

﴿فاطر السموات﴾ مبتدئها ومبتدعها وعن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما ما كنت أدري ما فاطر السموات والأرض حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر، فقال أحدهما أنا فطرتهما أي ابتدأتها⁽²⁾ وقرئ: الذي فطر السموات والأرض وجعل الملائكة وقرئ: جاعل الملائكة بالرفع على المدح ﴿رسلاً﴾ بضم السين وسكونها ﴿أولي أجنحة﴾ أصحاب أجنحة وأولو اسم جمع لذا، وكما أن أولاء اسم جمع لذا ونظيرهما في المتمكنة المخاض والخفة ﴿مثنى وثلاث ورباع﴾ صفات لأجنحة وإنما لم تنصرف لتكرار العدل فيها وذلك أنها عدلت عن ألفاظ الأعداد عن صيغ إلى صيغ آخر كما عدل عمر عن عامر وحذام عن حازمة وعن تكرير إلى غير تكرير، وأما الوصفية فلا يفترق الحال فيما بين المعدولة والمعدول عنها إلا تراك تقول مررت بنسوة أربع وبرجال ثلاثة فلا يرجع عليها والمعنى أن الملائكة خلقاً أجنحتهم اثنان اثنان أي لكل واحد منهم جناحان وخلقاً أجنحتهم ثلاثة ثلاثة وخلقاً أجنحتهم أربعة أربعة ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي: يزيد في خلق الأجنحة وفي غيره ما تقتضيه مشيئته وحكمته والأصل الجناحان لأنهما بمنزلة اليدين ثم الثالث والرابع زيادة على الأصل وذلك أقوى للطيران وأعون عليه.

فإن قُلْتُ: قياس الشفع من الأجنحة أن يكون في كل شق نصفه فما صورة الثلاثة قُلْتُ: لعل الثالث يكون في وسط الظهر بين الجناحين يمدّهما بقوة أو لعله لغير الطيران فقد مرّ بي في بعض الكتب أنّ صنفاً من الملائكة لهم ستة أجنحة، فجناحان يلفون بهما أجسادهم وجناحان يطيرون بهما في الأمر من أمور الله وجناحان مرخيان على وجوههم حياء من الله، وعن رسول الله ﷺ أنه رأى جبريل عليه السلام ليلة المعراج وله ستمائة جناح⁽³⁾. وروي أنه سأل جبريل عليه السلام أن يتراءى له في صورته فقال: إنك لن تطيق ذلك قال: إنني أحب أن تفعل، فخرج رسول الله ﷺ في ليلة مقمرة فاتاه جبريل في صورته فغشي على النبي ﷺ، ثم أفاق وجبريل عليه السلام مسنده وإحدى يديه على صدره والأخرى بين كتفيه فقال: سبحان الله ما كنت أرى أن شيئاً من الخلق هكذا، فقال:

﴿ويقدفون﴾ معطوف على قد كفروا على حكاية الحال الماضية يعني: وكانوا يتكلمون ﴿بالغيب﴾ ويأتون به ﴿من مكان بعيد﴾ وهو قولهم في رسول الله ﷺ شاعر ساحر كذاب وهذا تكلم بالغيب والأمر الخفي لأنهم لم يشاهدوا منه سحرًا ولا شعرًا ولا كنبًا وقد أتوا بهذا الغيب من جهة بعيدة من حاله لأن أبعد شيء مما جاء به الشعر والسحر، وأبعد شيء من عانته التي عرفت بينهم وجربت الكذب والزور وقرئ: ويقدفون بالغيب على البناء للمفعول أي يأتهم به شياطينهم ويلقنونهم إياه وإن شئت فقله: بقوله، وقالوا أمنا به على أنه مثلهم في طلبهم تحصيل ما عطلوه من الإيمان في الدنيا بقولهم أمنا في الآخرة وذلك مطلب مستبعد بمن يقذف شيئاً من مكان بعيد لا مجال للظن في لحوقه حيث يريد أن يقع فيه لكونه غائباً عنه شاحطاً والغيب الشيء الغائب، ويجوز أن يكون الضمير للعذاب الشديد في قوله: بين يدي عذاب شديد، وكانوا يقولون وما نحن بمعنيين إن كان الأمر كما تصفون من قيام الساعة والعقاب والثواب ونحن أكرم على الله من أن يعذبنا قاتسين أمر الآخرة على أمر الدنيا فهذا كان قذفهم بالغيب، وهو غيب ومقنوف به من جهة بعيدة لأنّ دار الجزاء لا تنقاس على دار التكليف.

وَيَسْئَلُ بَيْنَهُمْ وَيَسْئَلُ مَا يَسْتَهْوُونَ كَمَا قِيلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا

فِي سَلْبٍ مُرِيبٍ ﴿٥٨﴾.

﴿ما يستهون﴾ من نفع الإيمان يومئذ والنجاة به من النار والفرز بالجنة أو من الرد إلى الدنيا كما حكى عنهم أرجعنا نعمل صالحاً ﴿بأشياءهم﴾ بأشباهم من كفرة الأمم ومن كان مذهبه مذهبهم ﴿مريب﴾ إما من أراه إذا أوقعه في الريبة والتهمة أو من أراب الرجل إذا صار ذا ريبة ودخل فيها وكلاهما مجاز إلا أنّ بينهما فريباً وهو أنّ المررب من الأوّل منقول ممن يصح أن يكون مريباً من الأعيان إلى المعنى، والمررب من الثاني منقول من صاحب الشك إلى الشك كما تقول شعر شاعر. عن رسول الله ﷺ من قرأ سورة سبأ لم يبق رسول ولا نبي إلا كان له يوم القيامة رقيقاً ومصافحاً⁽¹⁾.

(3) أخرجه ابن حبان في كتاب: التاريخ، باب: صفته ﷺ وأخباره (الحديث رقم: 6428).

(1) نكره الثعلبي، وابن مردويه، ورواه الواحدي في التفسير، الزيلعي 142/3.

(2) تقدم في الأنعام.

ابن عباس رضي الله عنهما؛ قُلْتُ: إن أراد بالتوبة الهداية لها والتوفيق فيها وهو الذي أراده ابن عباس رضي الله عنهما إن قاله فمقبول وإن أراد أنه إن شاء أن يتوب العاصي تاب، وإن لم يشأ لم يتب فمرود لأن الله تعالى يشاء التوبة أبداً ولا يجوز عليه أن لا يشاءها ﴿من بعده﴾ من بعد إمساكه كقوله تعالى: ﴿من يهديه من بعد الله﴾⁽³⁾ فبأي حديث بعد الله أي من بعد هدايته وبعد آياته ﴿وهو العزيز﴾ الغالب القادر على الإرسال والإمساك ﴿الحكيم﴾ الذي يرسل ويمسك ما تقتضي الحكمة إرساله وإمساكه.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِزَّ اللَّهُ بِرِزْقِكُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَانظُرُوا كَيْفَ تَتَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾.

ليس المراد بذكر النعمة نكرها باللسان فقط ولكن به القلب وحفظها من الكفران والغمط وشكرها بمعرفة حقها والاعتراف بها وطاعة موليتها ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه: انكر أيادي عندك؛ يريد حفظها وشكرها والعمل على موجبها والخطاب عام للجميع لأن جميعهم مغمورون في نعمة الله، وعن ابن عباس رضي الله عنهما يريد يا أهل مكة انكروا نعمة الله عليكم حيث أسكنكم حرمة ومنعكم من جميع العالم والناس يتخطفون من حولكم وعنه نعمة الله العافية، وقرئ: غير الله بالحرركات الثلاث فالجر والرفع على الوصف لفظاً ومحلاً والنصب على الاستثناء.

فإن قُلْتُ: ما محل ﴿يرزقكم﴾! قُلْتُ: يحتمل أن يكون له محل إذا أوقعت صفة لخالق، وأن لا يكون له محل إذا رفعت محل من خالق بإضمار يرزقكم وأوقعت يرزقكم تفسيراً له، أو جعلته كلاماً مبتدأ⁽⁴⁾ بعد قوله ﴿هل من خالق غير الله﴾.

فإن قُلْتُ: هل فيه دليل على أن الخالق لا يطلق على غير الله تعالى! قُلْتُ: نعم إن جعلت يرزقكم كلاماً مبتدأ وهو الوجه الثالث من الأوجه الثلاثة وأما على الوجهين الآخرين وهما الوصف والتفسير فقد تقيد فيهما بالرزق من السماء والأرض وخرج من الإطلاق فكيف يستشهد به على اختصاصه بالإطلاق⁽⁵⁾، والرزق من السماء المطر ومن الأرض النبات ﴿لا إله إلا هو﴾ جملة مفصولة لا محل لها مثل يرزقكم في الوجه الثالث، ولو وصلت كما وصلت يرزقكم لم يساعد عليه المعنى لأن قولك هل من خالق آخر

جبريل فكيف لو رأيت إسرافيل له اثنا عشر جناحاً جناح منها بالمشرق وجناح بالمغرب وإن العرش على كاهله وإنه ليتضاءل الأحايين لعظمة الله حتى يعود مثل الوصع وهو العصفور الصغير⁽¹⁾ وروي عن رسول الله ﷺ في قوله تعالى: ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ وهو الوجه الحسن والصوت الحسن والشعر الحسن⁽²⁾ وقيل: الخط الحسن وعن قتادة الملاحه في العينين والآية مطلقة تتناول كل زيادة في الخلق من طول قامه واعتدال صورة وتمام في الأعضاء، وقوة في البطش وحصافة في العقل وجزالة في الرأي وجراءة في القلب وسماحة في النفس وذلاقة في اللسان ولباقة في التكلم، وحسن تأن في مزاوله الأمور وما أشبه ذلك مما لا يحيط به الوصف.

مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرِيلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ أَلْمَزِيُّ لَكُمْ ﴿٤﴾.

استعير الفتح للإطلاق والإرسال ألا ترى إلى قوله: ﴿فلا مرسل له من بعده﴾ مكان لا فاتح له يعني: أي شيء يطلق الله من رحمة أي من نعمة رزق أو مطر أو صحة أو أمن أو غير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحاط بعددها، وتنكيره الرحمة للإشاعة والإبهام كأنه قال من آية رحمة كانت سماوية، أو أرضية فلا أحد يقدر على إمساكها وحبسها وأي شيء يمسك الله فلا أحد يقدر على إطلاقه.

فإن قُلْتُ: لم أنت الضمير أولاً ثم نكر آخرًا وهو راجع في الحالين إلى الاسم المتضمن معنى الشرط قُلْتُ: هما لغتان الحمل على المعنى، وعلى اللفظ والمتكلم على الخيرة فيهما فأنث على معنى الرحمة ونكر على أن لفظ المرجوع إليه لا تانيث فيه ولأن الأول فسر بالرحمة، فحسن اتباع الضمير التفسير ولم يفسر الثاني فترك على أصل التنكير، وقرئ: فلا مرسل لها.

فإن قُلْتُ: لا بد للثاني من تفسير فما تفسيره قُلْتُ: يحتمل أن يكون تفسيره مثل تفسير الأول ولكنه ترك لدلالته عليه وإن يكون مطلقاً في كل ما يمسكه من غضبه ورحمته وإنما فسر الأول دون الثاني للدلالة على أن رحمته سبقت غضبه.

فإن قُلْتُ: فما تقول فيمن فسر الرحمة بالتوبة وعزاه إلى

= والذي يحقق الوجه الثالث وأنه هو المراد أن الآية خوطب بها قوم على أنهم مشردون إذا سئلوا عن رزقهم من السموات والأرض، قالوا: الله فقررنا بذلك، وقرعوا به إقامة للحجة عليهم بإقرارهم، ولو كان على غير هذا الوجه قيد لكان مفهومه إثبات خالق غير الله، لكنه لا يرزق وهؤلاء الكفرة قد تبرؤوا عن ذلك فلا وجه لتقريعهم بما يلائم قولهم هذا ترجيح الوجه الثالث من حيث مقصود سياق الآية، وأما من حيث النظم اللفظي فلأن الجمليتين اللتين هما قوله: يرزقكم، وقوله: لا إله إلا هو سيقنا سيقاً واحداً، والثانية مفصولة اتفاقاً مما تقدم، فنكلك وزينتها.

(1) نكرة الثعلبي في تفسيره، ورواه ابن المبارك في كتاب: الزهد / 3 / 146.

(2) عزاه الإمام القرطبي في تفسيره للإمام القشيري 320/14.

(3) سورة الجاثية، الآية: 23.

(4) قال أحمد: والوجه المؤخر أوجهها.

(5) قال أحمد: القدرية إذا قرعت هذه الآية أسماهم قالوا بجرأة على الله تعالى: نعم تم خالق غير الله؛ لأن كل أحد عندهم يخلق فعل نفسه، فلهمذا رأيت الزمخشري وسع الدائرة وجلب الوجوه الشاردة النافرة، وجعل الوجهين طابقتان معتقده في إثبات خالق غير الله ووجهها هو الحق والظاهر، وأخره في النكر تاسياً له.

دعة شيعته ومتبعي خطواته هو أن يوردهم مورد الشفوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير، ثم كشف الغطاء وقشر اللحاء ليقطع الأطماع الفارغة والاماني الكاذبة فيبني الأمر كله على الإيمان والعمل وتركهما.

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

لما ذكر الفريقين الذين كفروا والذين آمنوا قال للنبية:

أَفَمَنْ زِينٌ لَمْ يَسُوءْ عَمَلَهُ فَرَأَاهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾

﴿أفمن زين له سوء عمله من هذين الفريقين كمن لم يزين له فكان رسول الله ﷺ قال لا فقال: ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ ومعنى تزيين العمل والإضلال واحد وهو أن يكون العاصي على صفة لا تجدي عليه المصالح حتى يستوجب ذلك خذلان الله تعالى، وتخليته وشانه فعند ذلك يهيم في الضلال ويطلق أمر النهي ويعتق طاعة الهوى حتى يرى القبيح حسناً، والحسن قبيحاً كأنما غلب على عقله وسلب تمييزه ويقعد تحت قول أبي نواس:

اسقني حتى تراني حسناً عند القبيح

وإذا خذل الله المصممين على الكفر وخالهم وشأنهم فإن على الرسول أن لا يهتم بأمرهم ولا يلقى بإلا إلى نكرهم ولا يحزن، ولا يتحسر عليهم اقتداء بسنة الله تعالى في خذلانهم وتخليتهم ونكر الزجاج أن المعنى: أفمن زين له سوء عمله ذهب نفسك عليهم حسرة فحفز الجواب لدلالة فلا تذهب نفسك عليه، أو أفمن زين له سوء عمله كمن هداه الله فحفز لدلالة فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء. عليه حسرات مفعول له يعني: فلا تهلك نفسك للحسرات وعليهم صلة تذهب كما تقول هلك عليه حباً ومات عليه حزناً أو هو بيان للمتحسر عليه، ولا يجوز أن يتعلق بحسرات لأن المصدر لا يتقدم عليه صلته ويجوز أن يكون حالاً كان كلها صارت حسرات لفرط التحسر كما قال جرير:

مشق الهواجر لحمهن مع السرى حتى ذهبن كلاً كلاً وصدوراً يريد رجعن كلاً كلاً وصدوراً أي لم يبق إلا كلاً كلها وصدورها ومنه قوله:

فعلى أثرهم تساقط نفسي حسرات ونكرهم لي سقام وقرئ: ﴿فلا تذهب نفسك﴾ ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾ وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم.

سوى الله لا إله إلا ذلك الخالق غير مستقيم لأن قولك هل من خالق سوى الله إثبات لله، فلو ذهبت تقول ذلك كنت مناقضاً بالنفي بعد الإثبات ﴿فأني توفكون﴾ فمن أي وجه تصرفون عن التوحيد إلى الشرك.

وَأَنْ يَكْفُرُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلَكِنَّ اللَّهَ تَرَجَّحَ الْأُمُورَ ﴿٩﴾

نعى به على قريش سوء تلقيهم آيات الله وتكذيبهم بها وسلى رسوله ﷺ بأن له في الأنبياء قبله أسوة حسنة ثم جاء بما يشتمل على الوعد والوعيد من رجوع الأمور إلى حكمه ومجازاة المكذب والمكذب بما يستحقانه، وقرئ: ﴿ترجع﴾ بضم التاء وفتحها.

فإن قلت: ما وجه صحة جزاء الشرط ومن حق الجزاء أن يتعقب الشرط وهذا سابق له قلت: معناه وإن يكن بوبك فتأسر بتكذيب الرسل من قبلك، فوضع فقد كذبت رسل من قبلك موضع فتأسر استغناء بالسبب عن المسبب أعني بالتكذيب عن التأسر.

فإن قلت: ما معنى التنكير في رسل؟ قلت: معناه، فقد كذبت رسل أي رسل ذوو عدد كثير وأولو آيات ونذر وأهل أعمار طوال وأصحاب صبر وعزم وما أشبه ذلك وهذا أسلى له وأحث على المصابرة.

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَرْجِعُوا الْوَيْعَةَ الَّتِي كُنتُمْ وَاللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿١٠﴾

وعد الله الجزاء بالثواب والعقاب ﴿فلا ترجعوا﴾ فلا تخدعنكم ﴿البنيا﴾ ولا يذهبنكم التمتع بها والتلذذ بمنافعها عن العمل للأخرة وطلب ما عند الله ﴿ولا يفرغوا بالله الغرور﴾ لا يقولون لكم اعملوا ما شئتم، فإن الله غفور يغفر كل كبيرة ويعفو عن كل خطيئة⁽¹⁾ والغرور الشيطان لأن ذلك دينه وقرئ بالضم، وهو مصدر غره كاللزم والنهوك أو جمع غار كقواعد قعود.

إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾

أخبرنا الله عز وجل أن الشيطان لنا عدو مبين واقتصص علينا قصته وما فعل بابينا آدم عليه السلام، وكيف انتدب لعداوة جنسنا من قبل وجوده وبعده ونحن على ذلك نتولاه ونطيعه فيما يريد منا مما فيه هلاكنا فوعظنا عز وجل بأنه كما علمتم عدوكم الذي لا عدو أعرق في العداوة منه وأنتم تعاملونه معاملة من لا علم له بحاله ﴿فاتخذوه عدوا﴾ في عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم إلا ما يدل على معاداته ومناصبته في سرهم وجهرهم، ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذي يؤمّه في

(1) نال أحمد: هو يعرض باهل السنة في اعتقادهم جواز مغفرة الكبائر للموحد وإن لم يكن توبة وهذا لا يناقض صدق وعده تعالى، لأن الله تعالى حيث توعد على الكبائر قرن الوعد بالمشيئة =

في مثل قوله لهم: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾، فهم إذاً مصنفون بوعد الله تعالى موثقون به على حسب ما ورد.

وَأَنَّ أَلَيْسَ أُرْسِلَ الرِّيحَ فَيُثِيرُ صَابًا سَفَنَتَهُ إِلَّا بَلَدٌ مِّنِّي فَأَحْيَيْنَا بِهِ
الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾

وقرى: ﴿أرسل الريح﴾

فإن قُلْتُ: لم جاء فنثير على المضارعة نون ما قبله وما بعده؟ قُلْتُ: ليحكي الحال التي تقع فيها إشارة الرياح السحاب وتستحضر تلك الصور البيعية الدالة على القدرة الربانية، وهكذا يفعلون بفعل فيه نوع تمييز وخصوصية بحال تستغرب أو تهم المخاطب أو غير ذلك كما قال تابط شراً.

باني قد لقيت الغول تهوي بسهب كالصحيفة صحصان
أضربها ببلاد هوش فخرت صريعاً للبين وللجران
لأنه قصد أن يصور لقومه الحالة التي تشجع فيها
بزعمه على ضرب الغول، كأنه يبصرهم إياهم ويطلعهم
على كنهها مشاهدة للتعجب من جرأته على كل هول
وثباته عند كل شدة، وكذلك سوق السحاب إلى البلد الميت
وأحياء الأرض بالمطر بعد موتها لما كانا من الدلائل على
القدرة الباهرة قيل: فسقنا وأحيينا معدولاً بهما عن لفظ
الغوية إلى ما هو أدخل في الاختصاص وأدل عليه والكاف
في ﴿كنك﴾ في محل الرفع أي مثل إحياء الموات نشور
الأموات، وروي أنه قيل لرسول الله ﷺ كيف يحيي الله
الموتي وما آية نك في خلقه فقال: «هل مررت بوادي أهلك
محللاً بم مررت به يهز خضراً». قال: نعم قال: «فكنك
يحيي الله الموتى وتلك آيته في خلقه»^(١). وقيل: يحيي الله
الخلق بماء يرسله من تحت العرش كمني الرجال تنبت منه
أجساد الخلق.

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلْيَلِ الْعِزَّةَ جَمِيعاً إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ
وَالصَّالِحُ الصَّالِحُ بَرِّمَهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ
وَمَكْرٌ أَوَّلَتْهُ هُوَ بَرٌّ ﴿١٦﴾

كان الكافرون يتعززون بالأصنام كما قال عز وجل:
﴿واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً﴾ والذين آمنوا
بالمشركين من غير مواطاة قلوبهم كانوا يتعززون
بالمشركين كما قال تعالى: ﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء
من دون المؤمنين أيبغون عندهم العزة فإن العزة لله
جميعاً﴾^(٢) فبين أن لا عزة إلا لله ولأوليائه، وقال: ﴿والله
العزة ورسوله وللمؤمنين﴾ والمعنى: فليطلبها عند الله
فوضع قوله ﴿فله العزة جميعاً﴾ موضعه استغناء به
عنه لدلالته عليه لأن الشيء لا يطلب إلا عند صاحبه
ومالكة ونظيره قولك: من أراد النصيحة فهي عند الأبرار،

تريد فليطلبها عندهم إلا أنك أقمت ما يدل عليه مقامه
ومعنى فله العزة جميعاً أن العزة كلها مختصة بالله: عزة
الدنيا وعزة الآخرة، ثم عرف أن ما تطلب به العزة هو
الإيمان والعمل الصالح بقوله ﴿إليه يصعد الكلم الطيب
والعمل الصالح يرفعه﴾ والكلم الطيب لا إله إلا الله. عن
ابن عباس رضي الله عنهما يعني: أن هذه الكلم لا تقبل
ولا تصعد إلى السماء، فتكتب حيث تكتب الأعمال المقبولة
كما قال عز وجل: إن كتاب الأبرار لفي عِلِّيِّين إلا إذا اقترن
بها العمل الصالح الذي يحققها ويصدقها فرفعها وأصعدها
وقيل: الرفع الكلم والمرفوع العمل لأنه لا يقبل عمل إلا
من موحد وقيل: الرفع هو الله تعالى والمرفوع العمل
وقيل: الكلم الطيب كل نكر من تكبير وتسبيح وتهليل،
وقراءة قرآن ودعاء واستغفار وغير ذلك وعن النبي ﷺ هو
قول الرجل سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر
إذا قالها العبد عرج بها الملك إلى السماء، فحيا بها وجه
الرحمن فإذا لم يكن عمل صالح لم يقبل منه^(٣)، وفي
الحديث لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ولا يقبل قولاً ولا عملاً
إلا بنية ولا يقبل قولاً وعملاً ونية إلا بإصابة السنة^(٤)،
وعن ابن المقفع: قول بلا عمل كثريد بلا نسم وسحاب بلا
مطر وقوس بلا وتر. وقرئ: إليه يصعد الكلم الطيب على
البناء للمفعول وإليه يصعد الكلم الطيب على تسمية الفاعل
من أصعد والمصعد هو الرجل أي يصعد إلى الله عز وجل
الكلم الطيب وإليه يصعد الكلام الطيب، وقرئ: والعمل
الصالح يرفعه بنصب العمل والرفع الكلم أو الله عز وجل.

فإن قُلْتُ: مكر فعل غير متعد لا يقال مكر فلان عمله
فيهم نصب ﴿السيئات﴾؟ قُلْتُ: هذه صفة للمصدر أو لما
في حكمه كقوله تعالى: ﴿ولا يحق المكر السيء إلا
بأهله﴾^(٥) أصله والذين مكروا المكرات السيئات أو أصناف
المكر السيئات وعنى بهن مكرات قريش حين اجتمعوا في
دار الندوة وتداولوا الرأي في إحدى ثلاث مكرات يمكرونها
برسول الله ﷺ إما إثباته أو قتله أو إخراجها كما حكى الله
سبحانه عنهم: ﴿إذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك
أو يخرجوك﴾ ﴿ومكر أولئك هو يبور﴾ يعني ومكر أولئك
الذين مكروا تلك المكرات الثلاث هو خاصة يبور أي: يكسد
ويفسد نون مكر الله بهم حين أخرجهم من مكة وقتلهم
وأثبتهم في قلب بدر، فجمع عليهم مكراتهم جميعاً وحقق
فيهم قوله: ﴿ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين﴾^(٦)
وقوله: ﴿ولا يحق المكر السيء إلا بأهله﴾^(٧).

وَأَنَّ خَلْقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلْنَا أَرْوَاجًا وَمَا نَحْمِلُ

(١) أخرجه أحمد في المسند 4/11، والحاكم في المستدرک 4/560.

(٢) سورة النساء، الآية: 139.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرک 2/426.

(٤) رواه الخطيب البغدادي في كتاب: الجامع لأدب الراوي والسامع،

الزليعي 3/149.

(٥) سورة فاطر، الآية: 43.

(٦) سورة الأنفال، الآية: 30.

(٧) سورة فاطر، الآية: 43.

قال على سبيل الاستطراد في صفة البحرين وما علق بهما من نعمته وعطائه ﴿ومن كل﴾ أي ومن كل واحد منهما ﴿تاكلون لحمًا طريًا﴾ وهو السمك ﴿وتستخرجون حلية﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفلك فيه﴾ في كل ﴿مواخر﴾ شواق للماء بجريها يقال: مخرت السفينة الماء ويقال للسحاب بنات مخر لأنها تمخر الهواء والسفن الذي اشتقت منه السفينة قريب من المخر لأنها تسفن الماء كأنها تقشره كما تمخره ﴿من فضله﴾ من فضل الله ولم يجر له نكر في الآية ولكن فيما قبلها ولو لم يجر لم يشكل لدلالة المعنى عليه، وحرف الرجاء مستعار لمعنى الإرادة ألا ترى كيف سلك به مسلك لام التعليل كأنما قيل: لتبتغوا ولتتشكروا، والفرات الذي يكسر العطش. والسائغ المرئي السهل الانحدار لعذوبته وقرى سيخ بوزن سيد وسيخ بالتخفيف وملح على فعل، والأجاج الذي يحرق بملوحته ويحتمل غير طريقة الاستطراد وهو أن يشبهه الجنسيين بالبحرين، ثم يفضل البحر الأجاج على الكافر بأنه قد شارك العذب في منافع من السمك واللؤلؤ وجرى الفلك فيه والكافر خلو من النفع فهو في طريقة قوله تعالى: ﴿ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة﴾⁽⁴⁾، ثم قال: ﴿وان من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق، فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله﴾⁽⁵⁾.

يُرِيحُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُرِيحُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ ظَلِيمٍ⁽¹³⁾.

﴿للكم﴾ مبتدا و﴿الله ربكم له الملك﴾ أخبار مترافعة أو الله ربكم خبران وله الملك جملة مبتدأة واقعة في قران قوله: ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قمطير﴾ ويجوز في حكم الإعراب إيقاع اسم الله صفة لاسم الإشارة، أو عطف بيان وربكم خبرًا لولا أن المعنى ياباه والقمطير لفافة النواة وهي القشرة الرقيقة الملتفة عليها.

إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَكُمْ وَلو سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ⁽¹⁴⁾.

إن تدعوا الأوثان ﴿لا يسمعون دعاءكم﴾ لأنهم جماد ﴿ولو سمعوا﴾ على سبيل الفرض والتمثيل لـ ﴿ما استجابوا لكم﴾ لأنهم لا يدعون ما تدعون لهم من الإلهية، ويتبرؤون منها وقيل: ما نفعوكم ﴿يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾ ولا يخبرك بالأمر مخبر هو مثل خبير عالم به ويريد أن الخبير بالأمر وحده هو الذي يخبرك بالحقيقة نون سائر المخبرين به والمعنى أن هذا الذي

مِنْ أَنْثَى وَلَا نَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُّمَرٍّ وَلَا يُفْسَدُ مِنْ عُورِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ⁽¹¹⁾.

﴿ازواجاً﴾ اصنافاً أو نكراناً وإنائناً كقوله تعالى: ﴿أو يزوجه نكراناً وإنائناً﴾، وعن قتادة رضي الله عنه زوج بعضهم بعضاً ﴿بعلمه﴾ في موضع الحال أي إلا معلومة له.

فإن قلت: ما معنى قوله: وما يعمر من معمر؟ قلت: معناه وما يعمر من أحد وإنما سماه معمرًا بما هو صائر إليه.

فإن قلت: الإنسان إما معمر أي: طويل العمر أو منقوص العمر أي: قصيره فيما أن يتعاقب عليه التعمير وخالفه فمحال فكيف صح قوله: ﴿وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره﴾؟ قلت: هذا من الكلام المتسامح فيه ثقة في تأويله بأنهم السامعين واطكالا على تسديدهم معناه بعقولهم وأنه لا يلبس عليهم إحالة الطول والقصر في عمر واحد وعليه كلام الناس المستفيض يقولون: لا يثيب الله عبداً ولا يعاقبه إلا بحق، وما تنعمت بلداً ولا اجتويته إلا قل فيه ثوابي، وفيه تأويل آخر وهو أنه لا يطول عمر إنسان ولا يقصر إلا في كتاب وصورته أن يكتب في اللوح إن حج فلان أو غزا فعمره أربعون سنة وإن حج وغزا فعمره ستون سنة فإذا جمع بينهما فبلغ الستين فقد عمر وإذا أقرد أحدهما فلم يتجاوز به الأربعون فقد نقص من عمره الذي هو الغاية، وهو الستون وإليه أشار رسول الله ﷺ في قوله: «إن الصدقة والصلة تعمران الديار وتزيديان في الأعمار»⁽¹⁾.

وعن كعب أنه قال حين طعن عمر رضي الله عنه: لو أن عمر دعا الله لأخر في أجله⁽²⁾ فقيل لكعب: ليس قد قال الله: ﴿إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾⁽³⁾ قال: فقد قال الله: وما يعمر من معمر وقد استفاض على الألسنة أطال الله بقاءه وفسح في مدتك وما أشبهه وعن سعيد بن جبير رضي الله عنه يكتب في الصحيفة عمره كذا وكذا سنة، ثم يكتب في أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان حتى يأتي على آخره وعن قتادة رضي الله عنه المعمر من بلغ ستين سنة والمنقوص من عمره من يموت قبل ستين سنة والكتاب اللوح، عن ابن عباس رضي الله عنهما ويجوز أن يراد بكتاب الله علم الله أو صحيفة الإنسان وقرى ولا ينقص على تسمية الفاعل من عمره بالتخفيف.

وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا يَلْحُ أجاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَرَرَى الْفَلَكُ فِيهِ مَوَازِرٌ لِيَتَّبِعُوا مِنْ ضَلِيلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ⁽¹²⁾.

ضرب البحرين العذب والمالح مثلين للمؤمن والكافر، ثم

(4) سورة البقرة، الآية: 74.

(5) سورة البقرة، الآية: 74.

(1) أخرجه أحمد في المسند 6/159.

(2) عزاه الزيلعي لإسحاق بن راهويه 3/151.

(3) سورة النمل، الآية: 61 وسورة الاعراف، الآية: 34.

من خطاياهم من شيء.

فإن قُلْتُ: ما الفرق بين معنى قوله ﴿ولا تزر وازرة وزر اخرى﴾ وبين معنى ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء﴾؟ **قُلْتُ:** الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه وأنه تعالى لا يؤاخذ نفساً بغير ننبها والثاني في أن لا غياث يومئذ لمن استغاث حتى أن نفساً قد أثقلت الأوزار وبهظتها لودعت إلى أن يخفف بعض وقرها لم تجب ولم تغث وإن كان المدعو بعض قرابتها من أب أو ولد أو أخ.

فإن قُلْتُ: إلام أسند كان في ﴿ولو كان ذا قربي﴾ **قُلْتُ:** إلى المدعو المفهوم من قوله وإن تدع مثقلة.

فإن قُلْتُ: فلم ترك نكر المدعو؟ **قُلْتُ:** ليعم ويشمل كل مدعو.

فإن قُلْتُ: كيف استقام إضمار العام ولا يصح أن يكون العام ذا قربي للمثقلة **قُلْتُ:** هو من العموم الكائن على طريق البذل.

فإن قُلْتُ: ما تقول فيمن قرأ ولو كان ذو قربي على كان التامة كقوله تعالى: وإن كان ذو عسرة **قُلْتُ:** نظم الكلام أحسن ملاءمة للناقصة لأن المعنى على أن المثقلة إن دعت أحداً إلى حملها لا يحمل منه شيء وإن كان مدعوها ذا قربي وهو معنى صحيح ملتئم ولو قلت، ولو وجد ذو قربي لتفكك وخرج من اتساقه والتثامه على أن ههنا ما ساع أن يستتر له ضمير في الفعل بخلاف ما أوردته **بالغيب** حال من الفاعل أو المفعول أي يخشون ربهم غائبين عن عذابه أو يخشون عذابه غائباً عنهم وقيل: بالغيب في السر وهذه صفة الذين كانوا مع رسول الله ﷺ من أصحابه فكانت عانيتهم المستمرة أن يخشوا الله، وهم الذين أقاموا الصلاة وتركوا مزاراً منصوباً وعلماً مرفوعاً يعني إنما تقدر على إنذار هؤلاء وتحذيرهم من قومك وعلى تحصيل منفعة الإنذار فيهم بون متمرديةهم وأهل عنادهم **ومن تزكى** ومن تطهر بفعل الطاعات وترك المعاصي، وقرئ: ومن أزكى فإنما يزكي وهو اعتراض مؤكد لخشيتهم وإقامتهم الصلاة لأنهما من جملة التزكي **وإلى الله المصير** وعد للممتزكين بالثواب.

فإن قُلْتُ: كيف اتصل قوله إنما تنذر بما قبله؟ **قُلْتُ:** لما غضب عليهم في قوله إن يشأ يذهبكم أتبعه الإنذار بيوم القيامة ونكر أهوالها، ثم قال: إنما تنذر كان رسول الله ﷺ أسمعهم ذلك فلم ينفذ فنزل إنما تنذر أو أخبره الله تعالى بعلمه فيهم.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ ﴿١٦﴾

أخبرتكم به من حال الأوثان هو الحق لأنني خبير بما أخبرت به وقرئ: يدعون بالياء والياء.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٦﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٧﴾﴾

فإن قُلْتُ: لم عرف الفقراء؟ **قُلْتُ:** قصد بذلك أن يريهم أنهم لشدة افتقارهم إليه هم جنس الفقراء وإن كانت الخلائق كلهم مفتقرين إليه من الناس، وغيرهم لأن الفقر مما يتبع الضعف وكلما كان الفقير أضعف كان أفقر وقد شهد الله سبحانه على الإنسان بالضعف في قوله وخلق الإنسان ضعيفاً وقال سبحانه وتعالى: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾^(١) ولو نكر لكان المعنى أنتم بعض الفقراء.

فإن قُلْتُ: قد قوبل الفقراء بالغنى، فما فائدة الحميد؟ **قُلْتُ:** لما أثبت فقرهم إليه وغناه عنهم وليس كل غني نافعا بغناه إلا إذا كان الغني جواداً منعماً، فإذا جاد وأنعم حمده المنعم عليهم واستحق عليهم الحمد نكر الحميد ليدل به على أنه الغني النافع بغناه خلقه الجواد المنعم عليهم المستحق بإنعامه عليهم أن يحمده الحميد على السنة مؤمنينهم.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بَعِيزٌ ﴿١٧﴾

﴿بعيز﴾ بممتنع وهذا غضب عليهم لاتخاذهم له انداداً وكفرهم بآياته ومعاصيهم كما قال: وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم وعن ابن عباس رضي الله عنهما يخلق بعنكم من يعبد لا يشرك به شيئاً.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ سَوِيًّا وَلَا كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُذَرُ الَّذِينَ حَمَلُوا ثِقَاتٍ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمِن تَرَكِّيٰ فإِنَّمَا لِنَفْسِي. وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٧﴾﴾

الوزر والوقر أخوان ووزر الشيء إذا حمله، والوازية صفة للنفس والمعنى أن كل نفس يوم القيامة لا تحمل إلا وزرها الذي اقترفته لا تؤخذ نفس بنفس كما تأخذ جبابرة الدنيا الولي بالولي والجار بالجار.

فإن قُلْتُ: هلا قيل ولا تزر نفس وزر أخرى ولم قيل وازرة **قُلْتُ:** لأن المعنى: أن النفوس الوازرات لا ترى منهن واحدة إلا حاملة وزرها لا وزر غيرها.

فإن قُلْتُ: كيف توفق بين هذا وبين قوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم **قُلْتُ:** تلك الآية في الضالين المضلين وأنهم يحملون أثقال إضلال الناس مع أثقال ضلالهم وذلك كله أوزارهم ما فيها شيء من وزر غيرهم ألا ترى كيف كذبهم الله تعالى في قولهم اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم بقوله تعالى: ﴿وما هم بحاملين

اندرست آثار نذارة عيسى بعث الله محمداً ﷺ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَيْفَ أَكْتَفَىٰ بِنَكَرِ النَّذِيرِ عَنِ الْبَشِيرِ فِي آخِرِ الْآيَةِ بَعْدَ نَكَرْهُمَا؟ قُلْتُمْ: لَمَا كَانَتِ النَّذَارَةُ مَشْفُوعَةً بِالْبَشِيرَةِ لَا مَحَالَةَ دَلَّ نَكَرْهَا عَلَىٰ نَكَرْهَا لَا سِيَّمَا قَدْ اشْتَمَلَتِ الْآيَةُ عَلَىٰ نَكَرْهُمَا.

وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبُرِ وَإِلَّا كَتَبِ الْبُيُوتِ ﴿١٥﴾ ثُمَّ أَمَدَّتْ الَّذِينَ كَفَرُوا نَكَيْفَ كَانَتْ نَكَرِ ﴿١٦﴾.

﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ بالشواهد على صحة النبوة وهي المعجزات ﴿وَالزَّبُرِ﴾ وبالصحف ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ نحو التوراة والإنجيل والزبور. لما كانت هذه الأشياء في جنسهم أسند المجيء بها إليهم إسناداً مطلقاً وإن كان بعضها في جميعهم وهي البينات وبعضها في بعضهم وهي الزبور والكتاب وفيه مسلاة لرسول الله ﷺ.

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿١٧﴾.

﴿الْوَانِهَا﴾ أجناسها من الزمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها والجدد: الخطط والطرائق قال لبيد: أو مذهب جدد على الواحه، ويقال جنت الحمار للخطة السوداء على ظهره وقد يكون للظبي جنتان مسكيتان تفصلان بين لوني ظهره وبطنه ﴿وَوغرابيب﴾ معطوف على بيض أو على جدد كانه قيل: ومن الجبال مخطط نو جدد، ومنها ما هو على لون واحد غرابيب وعن عكرمة رضي الله عنه هي الجبال الطوال السود.

فَإِنْ قُلْتُمْ: الْغَرَابِيبُ تَكْدِيرٌ لِلأَسْوَدِ يُقَالُ: أَسْوَدٌ غَرَابِيبٌ وَأَسْوَدٌ حَلَكُوكٌ وَهُوَ الَّذِي أُبْعِدَ فِي السَّوَادِ وَأَغْرَبَ فِيهِ وَمِنَ الْغَرَابِ وَمِنَ حَقِّ التَّكْدِيرِ أَنْ يَتَّبِعَ الْمُؤَكَّدُ كَقَوْلِكَ: أَصْفَرُ فَاقِعٌ وَأَبْيَضُ يَقِقُ وَمَا أَشْبَهَ ذَلِكَ. قُلْتُمْ: وَجْهٌ أَنْ يَضْمَرَ الْمُؤَكَّدُ قَبْلَهُ وَيَكُونُ الَّذِي بَعْدَهُ تَفْسِيرًا لِمَا أَضْمَرَ كَقَوْلِ النَّابِغَةِ وَالْمُؤْمِنِ الْعَائِذَاتِ الطَّيْرِ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ لِزِيَادَةِ التَّوَكُّيدِ حَيْثُ يَدُلُّ عَلَى الْمَعْنَى الْوَاحِدِ مِنْ طَرِيقِ الْإِظْهَارِ وَالْإِضْمَارِ جَمِيعًا وَلَا بَدَّ مِنْ تَقْدِيرِ حَذْفِ الْمُضَافِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ الْجِبَالِ جُدُدٌ﴾ بِمَعْنَى وَمِنَ الْجِبَالِ ذُو جُدُدٍ بِيضٌ وَحُمْرٌ وَسُودٌ حَتَّى يُوَلِّدَ إِلَى قَوْلِكَ وَمِنَ الْجِبَالِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا كَمَا قَالَ ثَمَرَاتٌ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا.

وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْمَمْتُ لَكُمْ أَلْوَانَهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْفَى اللَّهُ مِنْ عِبَادِهِ أَلْمَمْتُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿١٨﴾.

﴿وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ﴾ يعني: ومنهم بعض مختلف ألوانه وقرئ الوانها وقرأ

﴿الْأَعْمَى وَالْبَصِيرِ﴾ مثل للكافر والمؤمن كما ضرب البحرين مثلاً لهما أو للسنم والله عز وجل.

وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾.

والظلمات والنور والظل والحور مثلاً للحق والباطل وما يؤيدان إليه من الثواب والعقاب.

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ ﴿٢١﴾.

والأحياء والأموات مثل الذين دخلوا في الإسلام والذين لم يدخلوا فيه وأصروا على الكفر. والحور السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحور بالليل والنهار وقيل: بالليل خاصة.

فَإِنْ قُلْتُمْ: لَا الْمَقْرُونَةَ بَوَاءَ الْعَطْفِ مَا هِيَ؟ قُلْتُمْ: إِذَا وَقَعَتِ الْوَاوُ فِي النَّفْيِ قَرْنَتْ بِهَا لِتَكْدِيرِ مَعْنَى النَّفْيِ.

فَإِنْ قُلْتُمْ: هَلْ مِنْ فَرْقٍ بَيْنَ هَذِهِ الْوَاوَاتِ؟ قُلْتُمْ: بَعْضُهَا ضَمَّتْ شَفْعًا إِلَى شَفْعٍ وَبَعْضُهَا وَتَرًا إِلَى وَتَرٍ ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني: أنه قد علم من يدخل في الإسلام ممن لا يدخل فيه فيهدي الذي قد علم أن الهداية تنفع فيه، ويخذل من علم أنها لا تنفع فيه وأما أنت فخفي عليك أمرهم فلذلك تحرص وتتهالك على إسلام قوم من المخنولين ومثلك في ذلك مثل من يريد أن يسمع المقبورين وينذر ذلك ما لا سبيل إليه ثم قال:

إِن نَّتْ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٢﴾.

﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي: ما عليك إلا أن تبلغ وتنذر فإن كان المنذر ممن يسمع الإنذار نفع وإن كان من المصرين فلا عليك ويحتمل أن الله يسمع من يشاء أنه قادر على أن يهدي المطبوع على قلوبهم على وجه القسر والإلجاء وغيرهم على وجه الهداية والتوفيق، وأما أنت فلا حيلة لك في المطبوع على قلوبهم الذين هم بمنزلة الموتى. إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾.

﴿بِالْحَقِّ﴾ حال من أحد الضميرين يعني: محققاً أو محققين أو صفة للمصدر أي: إرسالاً مصحوباً بالحق أو صلة لبشير ونذير على بشيراً بالوعد الحق ونذيراً بالوعيد الحق، والأمة الجماعة الكثيرة قال الله تعالى: ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ (١) ويقال لأهل كل عصر: أمة وفي حدود المتكلمين الأمة هم المصدقون بالرسول ﷺ لكون المبعوث إليهم وهم الذين يعتبر إجماعهم والمراد ههنا أهل العصر.

فَإِنْ قُلْتُمْ: كَمْ مِنْ أُمَّةٍ فِي الْفِتْرَةِ بَيْنَ عِيسَى وَمُحَمَّدٍ عَلَيْهِمَا الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَلَمْ يَخَلْ فِيهَا نَذِيرٌ؟ قُلْتُمْ: إِذَا كَانَتْ آثَارُ النَّذَارَةِ بَاقِيَةً لَمْ تَخَلْ مِنْ نَذِيرٍ إِلَى أَنْ تَنْدُرَ وَحِينَ

رَزَقْتَهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ بِحِمْدِهِ لَنْ نُجِيبَهُنَّ بِكُفْرٍ (٢٢).

﴿يَقُولُونَ كِتَابُ اللَّهِ﴾ يداومون على تلاوته وهي شانهم ودينهم وعن مطرف رحمه الله هي آية القرآء وعن الكلبي رحمه الله يأخذون بما فيه وقيل: يعلمون ما فيه ويعملون به، وعن السدي رحمه الله: هم أصحاب رسول الله ﷺ ورضي عنهم وعن عطاء: هم المؤمنون ﴿يَرْجُونَ﴾ خبر إن والتجارة طلب الثواب بالطاعة.

لِيُوفِيَهُمْ أَجْرَهُمْ وَيزِيدَهُمْ مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ (٢٣).

﴿لِيُوفِيَهُمْ﴾ متعلق بلن تبور أي تجارة ينتفي عنها الكساد وتتفق عند الله ليوفيهم بنفاقها عنده ﴿أَجْرَهُمْ﴾ وهي ما استحقوه من الثواب ﴿ويزيدهم﴾ من التفضل عن المستحق وإن شئت جعلت يرجون في موضع الحال على وأنفقوا راجين ليوفيهم أي فعلوا جميع ذلك من التلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله لهذا الغرض، وخبر إن قوله: ﴿إِنَّهُمْ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ على معنى غفور لهم شكور لأعمالهم والشكر مجاز عن الإثابة.

وَأَلَيْتَ آرَجِيَنَّ إِلَيْكَ مِّنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِبَيَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٢٤).

﴿الكتاب﴾ القرآن ومن للتبيين أو الجنس ومن للتبعض ﴿مصديقاً﴾ حال مؤكدة لأن الحق لا ينفك عن هذا التصديق ﴿لما بين يديه﴾ لما تقدمه من الكتب ﴿الخبير بصير﴾ يعني: أنه خبيرك وأبصر أحوالك فأراك أهلاً لأن يوحى إليك مثل هذا الكتاب المعجز الذي هو عيار على سائر الكتب.

فإن قلت: ما معنى قوله:

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ إِذِنَ اللَّهُ لِلَّذِينَ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٢٥).

﴿ثم أورثنا الكتاب﴾ قلت: فيه وجهان أحدهما إنا أوحينا إليك القرآن ثم أورثنا من بعك أي حكمتنا بتوريثه أو قال أورثناه وهو يريد نوره لما عليه أخبار الله ﴿الذين اصطفينا من عبادنا﴾ وهم أمته من الصحابة والتابعين وتابعيهم ومن بعدهم إلى يوم القيامة لأن الله اصطفاه على سائر الأمم وجعلهم أمة وسطاً ليكونوا شهداء على الناس واختصهم بكرامة الانتماء إلى أفضل رسل الله وحمل الكتاب الذي هو أفضل كتب الله، ثم قسمهم إلى ظالم لنفسه مجرم، وهو المرجأ لأمر الله ومقتصد وهو الذي خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً وسابق من السابقين والوجه

الزهري جند بالضم جمع جديدة وهي الجدة يقال جديدة وجديد وجدائد كسفيينة وسفن وسفائن وقد فسر بها قول أبي نؤيب يصف حمار وحش:

جون السراة له جدائد أربع

وروي عنه جدد بفتحيتين وهو الطريق الواضح المفسر وضعه موضع لطرائق والخطوط الواضحة المنفصل بعضها من بعض، وقرئ: والذواب مخففاً ونظير هذا التخفيف قراءة من قرأ ولا الضالين لأن كل واحد منهما فرار من التقاء الساكنين فحرك ذلك أولهما وحذف هذا آخرهما وقوله ﴿كذلك﴾ أي كاختلاف الثمرات والجبال المراد العلماء به الذين علموه بصفاته وعنه وتوحيده وما يجوز عليه، وما لا يجوز فعظموه وقدروه حق قدره وخشوه من خشيته ومن ازداد به علماً ازداد منه خوفاً ومن كان علمه به أقل أمن وفي الحديث: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»⁽¹⁾. وعن مسروق: كفى بالمرء علماً أن يخشى وكفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه. وقال رجل للشعبي: أفتني أيها العالم فقال: العالم من خشى الله وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقد ظهرت عليه الخشية حتى عرفت فيه.

فإن قلت: هل يختلف المعنى إذا تقدم المفعول في هذا الكلام أو آخر؟ قلت: لا بد من ذلك فإنك إذا قدمت اسم الله وأخرت العلماء كان المعنى إن الذين يخشون الله من بين عباده هم العلماء بون غيرهم وإذا عملت على العكس انقلب المعنى إلى أنهم لا يخشون إلا الله كقوله تعالى: ﴿ولا يخشون أحداً إلا الله﴾⁽²⁾ وهما معنيان مختلفان.

فإن قلت: ما وجه اتصال هذا الكلام بما قبله؟ قلت: لما قال ألم تر بمعنى ألم تعلم أن الله أنزل من السماء ماء وعدد آيات الله وأعلام قدرته وآثار صنعته وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس وما يستدل به عليه وعلى صفاته أتبع ذلك ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ كأنه قال: إنما يخشاه مثلك ومن على صفتك ممن عرفه حق معرفته وعلمه كنه علمه وعن النبي ﷺ: «أنا أرجو أن أكون أتقاكم الله وأعلمكم به»⁽³⁾.

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ: إنما يخشى الله من عباده العلماء وهو عمر بن عبد العزيز، ويحكي عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده ﴿إن الله عزيز غفور﴾ تعليل لوجوب الخشية لدلالته على عقوبة العصاة، وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم والمعاقب المثيب حقه أن يخشى.

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْقَرُوا مِمَّا

(3) أخرجه مالك في الموطأ، كتاب: الصيام، باب: ما جاء في الرخصة في القبلة للصائم (الحديث رقم: 13).

(1) أخرجه البخاري في كتاب: الإيمان، باب: قول النبي ﷺ «أنا أعلمكم بالله» (الحديث رقم: 20) (بمعناه).

(2) سورة الأحزاب، الآية: 39.

وَقَالُوا لَمَنَّمُ لِلَّهِ الَّذِي آذَنَ عَنَّا الْقُرْآنَ إِنَّكَ رَبَّنَا فَتَوَدَّ شُكْرًا
(٢١)

وقرئ الحزن والمراد حزن المتقين وهو ما أهمهم من خوف سوء العاقبة كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلَ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ فَمَنْ آتَىٰ اللَّهُ عَلَيْنَا وَقَانًا عَذَابَ السَّمُومِ﴾^(٥) وعن ابن عباس رضي الله عنهما حزن الأعراس والآفات وعنه حزن الموت وعن الضحاك حزن إبليس وسوسسته وقيل هم: المعاش وقيل: حزن زوال النعم وقد أكثروا حتى قال بعضهم: كراء الدار ومعناه انه يعم كل حزن من أحزان الدين والدنيا حتى هذا وعن رسول الله ﷺ ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة في قبورهم ولا في محشرهم ولا في مسيرهم وكانى باهل لا إله إلا الله يخرجون من قبورهم وهم ينفضون التراب عن رؤسهم ويقولون الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن^(٦)، ونكر الشكور دليل على أن القوم كثيرو الحسنات.

الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمَقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَآ بَسْئًا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٢٢)

المقامة بمعنى الإقامة يقال أقمت إقامة ومقاماً ومقامة ﴿من فضله﴾ من عطائه وإفضاله من قولهم لفلان فضول على قومه وفواضل وليس من الفضل الذي هو التفضل لأن الثواب بمنزلة الأجر المستحق والتفضل كالتبرع، وقرئ لغوب بالفتح وهو اسم ما يلغب منه أي لا نتكلف عملاً يلغبنا أو مصدر كالقبول والولوج أو صفة للمصدر كأنه لغوب لغوب كقولك: موت مائت.

فإن قلنت: ما الفرق بين النصب واللغوب قلنت: النصب التعب والمشقة التي تصيب المنتصب للأمر المزاول له وأما اللغوب فما يلحقه من الفتور بسبب النصب فالنصب نفس المشقة والكلفة واللغوب نتيجته وما يحدث منه من الكلال والفترة.

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فِيمَوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِن عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ (٢٣)

﴿فيموتوا﴾ جواب النفي ونصبه بإضمار أن وقرئ فيموتون عطفاً على يقضى وإنحالا له في حكم النفي أي لا يقضى عليهم الموت فلا يموتون كقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْذَنُ

الثاني انه قدم إرساله في كل أمة رسولا وأنهم كذبوا برسولهم، وقد جاؤهم بالبينات والذبر والكتاب المنير ثم قال إن الذين يتلون كتاب الله فأثنى على التالين لكتبه العاملين بشرائعه من بين المكذبين بها من سائر الأمم واعترض بقوله والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ثم قال: ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا من عبادنا أي من بعد أولئك المذكورين يريد بالمصطفين من عباده أهل الملة الحنيفية.

فإن قلنت: فكيف جعلت

حَنَّتْ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا يُجَلَّوْنَ فِيهَا مِن أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٤)

﴿جنات عدن﴾ بدلاً من الفضل الكبير الذي هو السبق بالخيرات المشار إليه بذلك؟ قلنت: لما كان السبب في نيل الثواب نزل منزلة المسبب كأنه هو الثواب فأبيلت عنه جنات عدن وفي اختصاص السابقين بعد التقسيم بذكر ثوابهم والسكون عن الآخرين ما فيه من وجوب الحذر فليحذر المقتصد وليملك الظالم لنفسه حذراً وعليهما بالتوبة النصوح المخلصة من عذاب الله ولا يغترا بما رواه عمر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق ومقتصدنا ناج وظالمنا مغفور له»^(١) فإن شرط نك صحة التوبة لقوله تعالى: ﴿عسى الله أن يتوب عليهم﴾^(٢) وقوله: ﴿إما يعذبهم وإما يتوب عليهم﴾^(٣) ولقد نطق القرآن بذلك في مواضع من استقرأها اطلع على حقيقة الأمر ولم يعلل نفسه بالخدع^(٤)، وقرئ سباق ومعنى بأن الله بتيسيره وتوفيقه.

فإن قلنت: لم قدم الظالم ثم المقتصد ثم السابق؟ قلنت: للإيدان بكثرة الفاسقين وغلبتهم وأن المقتصدين قليل بالإضافة إليهم والسابقين أقل من القليل، وقرئ جنة عدن على الإفراد كأنها جنة مختصة بالسابقين وجنات عدن بالنصب على إضمار فعل يفسره الظاهر أن يدخلون جنات عدن يدخلونها ويدخلونها على البناء للمفعول، ويحلون من حليت المرأة فهي حال ﴿ولؤلؤا﴾ معطوف على محل من أساور ومن داخلة للتبعية أي يحلون بعض أساور من ذهب كأنه بعض سابق لسائر الأبعاض كما سبق المسورون به غيرهم وقيل: إن نك الذهب في صفاء اللؤلؤ وقرئ ولؤلؤا بتخفيف الهزلة الأولى.

- (1) قال الزبيعي رواه البيهقي في كتاب: البعث والنشور: 153/3.
(2) سورة التوبة، الآية: 102.
(3) سورة التوبة، الآية: 106.
(4) قال أحمد: وقد صدرت هذه الآية بنكر المصطفين من عباد الله، ثم قسمتهم إلى الظالم، والمقتصد السابق ليلزم اندراج الظالم لنفسه من الموحدين في المصطفين، وإنه لعنهم وأي نعمة أتم وأعظم من اصطفاؤه للتوحيد والعقائد السالمة من البدع، فما بال المصنف يطبب في التسوية بين الموحدين المصطفى والكافر المجترى، =
- (5) سورة الطور، الآية: 26 - 27.
(6) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: في الإيمان بالله عز وجل (الحديث: 100).

مَوَّالِي جَمَلِكُمْ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ مَعَكُمْ كُفْرًا وَلَا يَزِيدُ
الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُ إِلَّا
خَسَارًا ﴿٢٧﴾.

يقال للمستخلف خليفة وخليف فالخليفة تجمع خلافت
والخليف خلفاء والمعنى أنه جعلكم خلفاءه في أرضه قد
ملككم مقاليد التصرف فيها وسلطكم على ما فيها وأباح
لكم منافعها لتشكروه بالتوحيد والطاعة ﴿فمن كفر﴾ منكم
وغمط مثل هذه النعمة السنية فوبال كفره راجع عليه وهو
مقت الله الذي ليس وراءه خزي وصغار وخسار الآخرة
الذي ما بقي بعده خسار والمقت أشد البغض ومنه قيل:
لمن ينكح امرأة أبيه مقتى لكونه موقوفاً في كل قلب وهو
خطاب الناس وقيل: خطاب لمن بعث إليهم رسول الله ﷺ
جعلكم أمة خلفت من قبلها ورأت وشاهدت فيمن سلف ما
ينبغي أن تعتبر به فمن كفر منكم فعليه جزاء كفره من
مقت الله وخسار الآخرة كما أن ذلك حكم من قبلكم.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ دَعَوْنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرْوَاهُ مَاذَا خَلَقُوا مِنَ
الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَمَهُمْ عَلَى يَدَيْهِمْ إِنَّهُ
بَلْ يَبْدُ الْظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٢٨﴾.

﴿أروني﴾ بدل من أرايتم لأن المعنى أرايتم أخبروني
كانه قال: أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعمما استحقوا به
الإلهية والشركة أروني أي جزء من أجزاء الأرض استنبوا
بخلقه نون الله أم لهم مع الله شركة في خلق السموات أم
معهم كتاب من عند الله ينطق بانهم شركاؤه فهم على
حجة وبرهان من ذلك الكتاب أو يكون الضمير في آياتناهم
للمشركين كقوله تعالى: ﴿أم أنزلنا عليهم سلطاناً﴾ (4) ﴿أم
آتيناهم كتاباً من قبله﴾ (5) بل إن يعد بعضهم وهم الرؤساء
﴿بعضاً﴾ وهم الاتباع ﴿إلا غروراً﴾ وهو قولهم هؤلاء
شفعائنا عند الله وقرئ: ﴿بيِّنات﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَسِكُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَكِنْ زَالَا إِذْ
أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَمْرٍ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٢٩﴾﴾.

﴿أن تزولا﴾ كراهة أن تزولا أو يمنعهما من أن تزولا
لأن الإمساك منع ﴿إنه كان حلیمًا غفوراً﴾ غير معاجل
بالعقوبة حيث يمسكهما وكانتا جديرتين بأن تهذا هذا لعظم
كلمة الشرك كما قال: تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق
الأرض، وقرئ ولو زالتا وإن أمسكهما جواب القسم في
ولئن زالتا سد مسد الجوابين ومن الأولى مزيدة لتأكيد
النفي والثانية للابتداء، من بعده من بعد إمساكه وعن ابن
عباس رضي الله عنه أنه قال لرجل مقبل من الشام من
لقيت به؟ قال: كعباً قال: وما سمعته يقول؟ قال: سمعته

لهم فيعتدون ﴿١﴾ ﴿كنلك﴾ مثل ذلك الجزاء ﴿يجزى﴾
وقرئ يجازي ونجزي ﴿كل كفور﴾ بالنون.

وَمَنْ يَصْطُرْخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا
نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرُ وَوَجَّهْنَا كُفْرَهُمْ فَيَذَرُوهَا
فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٢٧﴾.

﴿يصطرخون﴾ يتصارخون يفتعلون من الصراخ وهو
الصياح بجهد وشدة قال: كصرخة حبلى أسلمتها قبيلها،
واستعمل في الاستغاثة لجهد المستغيث صوته.

فإن قلت: هلا اكتفى بصالحاً كما اكتفى به في قوله
تعالى: ﴿فأرجعنا نعمل صالحاً﴾، وما فائدة زيادة ﴿غير
الذي كنا نعمل﴾ على أنه يؤذن أنهم يعملون صالحاً آخر
غير الصالح الذي عملوه قلت: فائدة زيادة التحسر على ما
عملوه من غير الصالح مع الاعتراف به وأما الوهم فزائل
لظهور حالهم في الكفر وركوب المعاصي ولأنهم كانوا
يحسبون أنهم على سيرة صالحة كما قال الله تعالى:
﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ فقالوا: أخرجنا
نعمل صالحاً غير الذي كنا نحسبه صالحاً فنعمله ﴿أو لم
نعمركم﴾ توبيخ من الله يعني فنقول لهم، وقرئ ما ينكر
فيه من أذكر على الإدغام وهو متناول لكل عمر تمكن فيه
المكلف من إصلاح شأنه وإن قصر إلا أن التوبيخ في
المتناول أعظم وعن النبي ﷺ: «العمر الذي أعذر الله فيه
إلى ابن آدم ستون سنة» (2). وعن مجاهد بين العشرين إلى
الستين وقيل: ثمانين عشر وسبع عشر و﴿الننير﴾
الرسول ﷺ وقيل: الشيب، وقرئ: وجاءكم النذر.

فإن قلت: علام عطف وجاءكم الننير؟ قلت: على معنى
أو لم نعمركم لأن لفظه لفظ استخبار ومعناه معنى إخبار
كانه قيل: قد عمرناكم وجاءكم الننير.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ كالتعليل لأنه إذا علم ما
في الصدور وهو أخفى ما يكون فقد علم كل غيب في
العالم وذات الصدور: مضمراتها وهي تانيت نو في نحو
قول أبي بكر رضي الله عنه نو بطن خارجة جارية (3)
وقوله لتغني عن ذواتك أجمعاً، المعنى ما في بطنها من
الحبيل وما في إنائك من الشراب لأن الحبيل والشراب
يصحبان البطن والإناء ألا ترى إلى قولهم معها حبيل
وكنلك المضمرات تصحب الصدور وهي معها ونو
موضوع لمعنى الصحبة.

(1) سورة المرسلات، الآية: 36.

(3) تقدم في الإسراء.

(4) سورة الروم، الآية: 35.

(5) سورة الزخرف، الآية: 21.

(2) أخرجه البخاري في كتاب: الرقاق، باب: من بلغ ستين سنة فقد
عذر الله إليه في العمر (الحديث: 6419).

